

إرهاصات الطب النفسي الإيقاع الحيوي التطوري.

منذ نصف قرن 1968 :

مقتطفات من كتابه "منذما يتعري الإنسان"

من حكاية: "الشعلة والحريق"

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD270517.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2017/05/27
السنة العاشرة - العدد: 3556



قال الحكيم:

=... هي حكاية ذلك الفتى الناثر هي حكاية هذا العصر، بل وكل عصر، وقد شغلنا الاستطرد في حديث "القص والسجن" عن صديقنا هذا الذي آمن حتى كفر، وعاش الكلمات التي قرأها بكل عمق وإحساس نقي، وحين أراد تحقيقها وجد كل شيء مختلفاً...، أراد أن يضيء فاحترق... أو كاد.

قال الفتى:

- وكيف كان ذلك؟

قال الحكيم:

= هو فتى من أرض هذا البلاد الطيب، حمل في نفسه تراث حضارة قديمة أصيلة، وفي جوفه طمى نيلها القوى الجبار، وانصهرت كل خلية من خلاياه بشمسها المشرقة الدافئة، وكان يؤلمه أشد الألم أن ينبض وجدانه بكل هذا الصدق والأمل، ثم هو لا يجد حوله إلا هذا التراخي والشلل، واتجه إلى الكتاب فعشق الكلمات من صغره، فمنذ العاشرة وهو يقرأ كل ما تقع عليه عيناه، آسف... لم يكن يقرأ الكلمات بل كان يعيشها، لم تكن الصفحات أمام عينيه مسطحة ملساء بل كانت دنيا زاخرة بالأشخاص، تنبض بالحياة، لم يفرق أبداً بين اللفظ والمعنى، كان اللفظ هو معناه في نفس الوقت... بل هو حقيقته.. كانت الألفاظ حقائق قائمة تسير في الحياة. بل هي الحياة. وكان من أول ما عرف من ألفاظ هو كلام الله سبحانه وتعالى، ومثل أهل هذه الأرض الطيبة المنبسطة كان الإيمان عنده أمراً بديهياً لا يحتاج إلى منطق أو تفكير، فلأمر ما يدخل الإيمان هنا إلى القلوب مباشرة دون تفسير ودون جهد ودون مراجعة، أهي دعة الطبيعة تثير هذا الشيء بداخل أنفسنا؟ الشيء النابض بالجوع إلى الاتصال بأصل الوجود؟ لماذا ظهرت الديانات السماوية كلها في هذه الأرض أو قريبا من هذه الأرض؟ وكيف لا؟ كيف يمكن وسط هذه الطبيعة السهلة ألا يتحرر الإنسان من قشرته الزائفة فإذا به جزء من كل ما حوله، يحس بالأمن والخير، يحس بالقوة والحق، يحس بالصدق والأمل، إذن هو الدين في صورته الأصلية، وقد كان نبض الدين في عروق صاحبنا أصيل وعميق، ولكنه حين دخل حظيرة الدين دخلها في صدر شبابه من باب جانبي، وإذا به في متاهات وسرايب... وابتدأت تجربته.

جاء إلى شبه مختار... وجلس..

لم يكن يقرأ الكلمات بل كان يعيشها، لم تكن الصفحات أمام عينيه مسطحة ملساء بل كانت دنيا زاخرة بالأشخاص، تنبض بالحياة

لم يفرق أبداً بين اللفظ والمعنى، كان اللفظ هو معناه في نفس الوقت... بل هو حقيقته.. كانت الألفاظ حقائق قائمة تسير في الحياة. بل هي الحياة

كان الإيمان عنده أمراً بديهياً لا يحتاج إلى منطق أو تفكير، فلأمر ما يدخل الإيمان هنا إلى القلوب مباشرة دون تفسير ودون جهد ودون مراجعة

كان نبض الدين في عروق صاحبنا أصيل وعميق، ولكنه حين دخل حظيرة الدين دخلها في صدر شبابه من باب جانبي، وإذا به في متاهات وسرايب... وابتدأت تجربته

كفهرته بكل ما يقال... وكل ما كان... وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون، بكل ما كتبوه، وما لم يكتبوه، بكل



شئ، وكل أحد

وقال:

- لقد كفرتُ بكل شئ.

قلت:

=بماذا؟

قال:

-كفرت بكل ما يقال.. وكل ما كان.. وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون، بكل ما كتبوه، وما لم

يكتبوه، بكل شئ وكل أحد.

قلت:

=ونفسك...؟

قال :

-كفرت بنفسى أولا وقبل كل شئ.. كفرت بالأصل والفرع، بالسبب والنتيجة، بالحق والباطل،

كفرت بالشئء وضده.

قلت:

=والإنسان.. والغد؟

قال:

-وبالذات كفرت بالإنسان... وبالذات كفرت بالغد.. لقد خُذت بما فيه الكفاية، وما بقى منى

هو العفن الطافي فوق الجسد المتآكل، اشتعلتُ حتى احترقت، وحتى الحريق لم يكمل مهمته فيتركنى

ترايا مقدسا، بل تركنى جسدا مشوها منتقخا سرعان ما فاحت رائحته... لست رمادا بعد.. لم أمت.. بل

جننت. أو هكذا تسمون أمثالى، الموت ينتهى إلى رماد نقى جاف، أما الجنون فهو موت عفن كريه، لم

أستطع حتى الموت.. لأنى كفرت بكل شئء حتى الموت.

.....

.....

.....

= انت ضقتَ بكل شئ.. ولكنك لم تكفرُ بعد.. وإلا لما كنت هنا.

- أنا هنا حتى أكفر بك أنت أيضا.. أكفر بالطبِّ وبالعلم، نعم العلم الطبى بعد أن كفرت بالعلم

السياسى والاجتماعى.. هل تريد ان تسمع بقية حكاية الإيمان حتى الكفر؟

=

- إسمع يا سيدى:

حين تهت فى سراديب الكهنوت، وانتهى الإيمان إلى غيابات التنظيم السرى، وانقلب نور كلام الله

إلى إرهاب كلام القادة والأوصياء، حين تصورت ما بين دفتى المصحف حلا لكل شئء فإذا بهم

يستعملونى وسيلة للقهر والقتل والإرهاب الفكرى، وجدت نفسى أرمى فى أحضان النقيض، وذهبت

بالذات كُفرت بالإنسان...
وبالذات كُفرت بالغد.. لقد
خُذت بما فيه الكفاية،
وما بقى منى هو العفن
الطافي فوق الجسد المتآكل

لم أمت.. بل جننت. أو هكذا
تسمون أمثالى، الموت ينتهى
إلى رماد نقى جاف، أما
الجنون فهو موت عفن كريه،
لم أستطع حتى الموت.. لأنى
كُفرت بكل شئء حتى
الموت.

حين تصورت ما بين دفتى
المصحف حلا لكل شئء فإذا
بهم يستعملونى وسيلة للقهر
والقتل والإرهاب الفكرى

وجدت نفسى أرمى فى
أحضان النقيض، وذهبت إلى
حيث وجهتني قراءاتى
الاشتراكية العلمية

وهناك فى أروقة المادية
الجدلية رأيت الإنسان ينتصر
على شهواته، قرأت عن
التطور والعدل، عن الرحمة
وحسن التوزيع، عن العمل
والإنتاج قرأت وطربت
ورقصة الكلمات فى
وجدانى رغم أنى تعلمت من
بعض التفاسير المادية البحتة،
ورغم أن داخلى رفض
الإلحاد والصيغ على الدين

ارتقيت فى أحضان المادية
والعلم المادى بعد أن

إلى حيث وجهتني قراءاتي الاشتراكية العلمية، فقد كنت مازلت أتلثم الطريق بما أقرأ من كلمات توجهني، وهناك في أروقة المادية الجدلية رأيت الإنسان ينتصر على شهواته، قرأت عن التطور والعدل، عن الرحمة وحسن التوزيع، عن العمل والإنتاج قرأت وطربت ورقصت الكلمات في وجداني، رغم أني تملمت من بعض التفسيرات المادية البحتة، ورغم أن داخلي رفض الإلحاد والهجوم على الدين، رغم كل هذا فقد ارتقيت في أحضان المادة والعلم المادي بعد أن كفرت بالكهنوت، بالمظاهر الدينية، ولكن داخلي ظل متمسكا بالنبض الإيماني الذي يحس بالله سبحانه برغم كل شيء، وبلا أية وسيلة، ولا حتى غاية، ولكني تجاهلت داخلي واندفعت إلى التفسير المادي للتاريخ،

.....

.....

كان النشاط سرياً منذ البداية، وكنت قد تمرست على الرؤية في الظلام من أيام الأخوة إياها، فلم يكن غريباً على أن أقبل السير في الظلام وصعدت السلم من أوله: خلية صغيرة، ثم مسؤولية كبيرة، وكلما صعدت درجة أحسست بالغرابة والانعراج، فقد كانت الكلمات المضيفة تتوارى وراء الإجراءات والأوامر والترتيبات، وبدأ فكري الحر يحتج، وقالوا أنت تحلم بغير الواقع.

قالوا: إن الحرية خطر على الناس، إنهم يستعملونها في جمع المال وإذلال الآخرين، إن الحرية بهذا الشكل هي العدو للحدود للبشر، للطبقة العاملة، ونحن نمثل الطبقة التي تمثل الأغلبية، ونحن أحرار، إذن فالأغلبية أحرار، وهذا يكفي لقيام الحرية.

.....

.....

وحيث رأيت الأمل يختنق في الصدور، حين رأيت الكلمات تتحبس في الحلق، حين اكتشفت أن أفكارى أنا شخصياً تتردد في الورد إلى ذهني، إلى هذا الحد وصل القهر إلى داخلنا: أنا أُمع نفسي أن أفكر خشية أن يجرنى فكري إلى مناطق محظورة تضر بالطبقة الحاكمة - أعني الطبقة العاملة - في كفاحها المجيد ضد الاستغلال، الطبقة العاملة هي السيد والباقون طماعون سفاحون خبيثاء، ولكن لماذا نفكر نحن رجال الحزب للطبقة العاملة، أليست لهم عقول يفكرون بها، ولكن أين هي الطبقة العاملة؟ إنها بين دفتي الكتب العقائدية.....

.....

رفضت أن تكون هناك وصاية مذهبية على الفكر والتفكير.. أو وصاية طبقية على الحكم أو على الشعب: طبقة الحزب وصية على الحكام، والحكام أوصياء على الشعب، والشعب مسموح له أن يفكر في الطريقة التي يحقق بها المادية الجدلية ذاتها.. ممنوع الجدال في الجدال.. لقد حلت النظرية كل شيء، الإنسان يستغل الإنسان منذ الأزل، وقد آن الأوان لتوقف كل هذا، وإذا بالإنسان يستغل الإنسان من أجل زعم أن يتوقف الإنسان عن استغلال الإنسان.

وكفرت، وكفرت...

ذبلت شمعاً جديدة.. ويئست وأنا أتحسس طريقي وسط الظلام على ضوء خافت يتراقص، وحين مددت يدي نحو الضوء احترقت وأقفت، ووجدت أن جذوة النار لم تهدأ.

وانحرفت.. هكذا قالوا!!

.....

كفرت بالكهنوت، بالمظاهر الدينية، ولكن داخلي ظل متمسكا بالنبض الإيماني الذي يحس بالله سبحانه برغم كل شيء، وبلا أية وسيلة، ولا حتى غاية، ولكني تجاهلت داخلي واندفعت إلى التفسير المادي للتاريخ

وصعدت السلم من أوله: خلية صغيرة، ثم مسؤولية كبيرة، وكلما صعدت درجة أحسست بالغرابة والانعراج، فقد كانت الكلمات المضيفة تتوارى وراء الإجراءات والأوامر والترتيبات، وبدأ فكري الحر يحتج، وقالوا أنت تحلم بغير الواقع

قالوا: إن الحرية خطر على الناس، إنهم يستعملونها في جمع المال وإذلال الآخرين، إن الحرية بهذا الشكل هي العدو للحدود للبشر، للطبقة العاملة

ولكن لماذا نفكر نحن رجال الحزب للطبقة العاملة، أليست لهم عقول يفكرون بها، ولكن أين هي الطبقة العاملة؟ إنها بين دفتي الكتب العقائدية.....

رفضت أن تكون هناك وصاية مذهبية على الفكر والتفكير.. أو وصاية طبقية على الحكم أو على الشعب

طبقة الحزب وصية على الحكام، والحكام أوصياء على

الشعب، والشعب مسموع له
أن يفكر في الطريقة التي
يحقق بها المادية الجدية
ذاتها..

ممنوع الجدل في الجدل.. لقد
حلته النظرية كل شيء،
الإنسان يستغل الإنسان منذ
الأزل، وقد آن الأوان لتوقفه
كل هذا، وإذا بالإنسان
يستغل الإنسان من أجل زعم
أن يتوقف الإنسان عن
استغلال الإنسان.

لقد خفت كل شيء، إنك إذ
تخافه تفعل أي شيء، وكل
شيء حتى تنجو من الريح
الذي يملكك

لقد خافوا على الإنسان حتى
قضوا على الإنسان، خافوا
على العمال حتى خنقوا
الحرية، خافوا على أنفسهم
حتى نسوا أنفسهم وخفت أنا
أيضا، كما أن من حقهم أن
يخافوا، فمن حقى أيضا أن
أفر بجلدى وفررت...

ماذا تستطيع حين يكفر
إنسان بنفسه.. ماذا تستطيع
أن تفعل له أنت؟

.....

قل لى ياسيادة الطبيب النجيب ما هو ذلك الشيء الذى يُنسى الإنسان نفسه؟

= الخوف

- هو ذاك.. الخوف.. لقد خفت كل شيء، إنك إذ تخاف تفعل أى شيء وكل شيء حتى تنجو من
الرعب الذى يملكك، لقد خافوا على الانسان حتى قضوا على الإنسان، خافوا على العمال حتى خنقوا
الحرية، خافوا على أنفسهم حتى نسوا أنفسهم وخفت أنا أيضا، كما أن من حقهم أن يخافوا، فمن حقى
أيضا أن أفر بجلدى وفررت... ولكن إلى أين؟ ياوحشة الطريق.. إليك، إلى الأمان المطلق إلى الجنون
المطبق.. أه.. يا إنسان يا غريب الأطوار.. تبا لك من حشرة جبانة تهرب إلى الجحر بمجرد سماع
وقع الأقدام.

= إن تجربتك مرة، ولكن لا تمتهن الإنسان، فقد عاش حتى الآن يصارع نفسه وهو يصارع
الخوف.. وهو مازال دائم التقدم بالرغم من كل شيء.

- نعم بالرغم من كل شيء. بدليل أنك جالس خلف كرسيك ترتزق من أشلائه المتناثرة

= أنا أعيش وأفعل ما أستطيع

- وماذا تستطيع حين يكفر إنسان بنفسه.. ماذا تستطيع أن تفعل له أنت؟

= أستطيع أن أحترمه رغم كل شيء، أحبه جزءاً جزءاً حتى يجمع شتات نفسه، أثق فيه وهو فى
قمة تصدعه.. أصحابه حتى يستمر كما ينبغي.

- ينبغي؟ وماذا ينبغي ياسيادة الطبيب؟ ينبغي أن أغمض عيني وأكتفى بأن أذهب إلى وظيفتى
وأقبض راتبى آخر الشهر؟ أن أقتنى امرأة حضانة تنتفخ بطنها بين الحين و الحين ببعض ما ألقيه فيها
من فضلات اللذة، حتى تزيد عدد الأحياء التعساء، ماذا ينبغي يا سيادة الطبيب؟. قل لى بربك ماذا تفعل
بالناس من على كرسيك هذا؟ أنت تساعد فى "مكنة" الإنسان وقتل مشاعره.

قطع

(خارج النص:

قال الفتى: إن هذا الرجل بالغ الصدق، حاد المنطق حتى يكاد يفهم الطبيب أولاً بأول

قال الحكيم: هذا صحيح، وعلى الطبيب أن يحترم ويصبر ويواصل كما سنرى.

قال الفتى ..: لا مفر من الانتظار والصبر أملا فى التعلم)

*** **



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معاً... نذهب أبعد

مركز باصاير الأبحاث والدراسات النفسية
وقضى أنفسكم فى تميزاً